﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ ٥١﴾ [فصلت: 51]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بعد أن حكتِ الآيةُ السّابقةُ أقوالَ الَّذي أنْعَمَ اللّهُ تَعالَى عَليهِ بَعدَ وُقوعِهِ في الآفاتِ؛ ناسَبَ أن تحْكيَ هذه الآيَةُ أفْعالَهُ أيضًا[1].

تـكـرارُ الحديث عـن تـقـلُّـبـات الإنسان بقصد دعـوتـه إلى الـتَّراجـع عن الـكـفـر إلى الإيمان

ويمكن أن يُقالَ في المناسبة بينهما: "لَمّا بَيَّنَ جهلَ الإنسان في حالات مخصوصةٍ، باليأس عند مسِّ الشَّرِّ، والأمن عند ذوق النِّعمة بعد الضُرِّ؛ بيَّن حالَهُ عند النِّعمة مطلقًا، ودعاءه عند الشَّرِّ، وإن كان قانطًا؛ تكريرًا لتقلُّب أحواله، وتناقضِ أقواله وأفعاله؛ ليكونَ ذلك داعيًا له إلى الرُّجوع عن الكفرِ إلى الإيمان[2].

التَّذكيرُ بضربٍ آخر من ضروب طغيان النَّفس الإنسانيَّة

ويمكن أن تكونَ هذه الآيةُ وصفًا وتَذكيرًا بِضَربٍ آخَرَ مِن طُغيانِ النَّفسِ الإنسانيَّةِ غَيرِ خاصٍّ بِأهلِ الشِّركِ، بَل هو مُنبَثٌّ في جَميعِ النّاسِ على تَفاوُتٍ، إلّا مَن عَصَمَ اللّه، وهو تَوْصيفٌ لِنَزَقِ النَّفسِ الإنسانيِّ، وقِلَّةِ ثَباتِه[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَعۡرَضَ﴾: (عرض) بِناءٌ تَكْثُرُ فُروعُهُ، وهيَ مَعَ كَثْرَتِها تَرْجِعُ إلى أصْلٍ واحِدٍ، وهو العَرْضُ الَّذي يُخالِفُ الطّولَ[4]، وإذا قيل: أعْرَضَ عنّي، فمعناه: ولّى مُبديًا عَرْضَهُ، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآ﴾ [السجدة: 22]، وقال أيضًا: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ﴾ [النساء: 63]،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 573.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 220، 221.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 14.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرض).

وربَّما حذف (عَنْهُ) استغناءً عنه نحو قوله تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النور: 48]، وقوله: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [آل عمران: 23][1].

2) ﴿وَنَـَٔا﴾: (نأي) كَلِمَتانِ: إحداهما: النَّأْيُ، وهو البُعْدُ، يُقالُ: نَأى يَنْأى نَأْيًا، وانتأى: افتَعَلَ مِنهُ، والمُنتَأى: المَوضِعُ البَعيدُ[2]، والمعنى المحوريُّ: صرفٌ وإبعادٌ بقوَّة، كما يصرف النُّؤْيُ ماءَ المطر عن الخباء، وكما يُنثَر الدَّمعُ عن الخَدِّ، قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُۖ﴾ [الأنعام: 26]، أي: ينهون النّاس عن اتِّباعه واتِّباع القرآن، ويبعدون هم أيضًا عنه، ويقال لمن تباعد، وانصرف تكبُّرًا: نأى بجانبه، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [الإسراء: 83][3].

3) ﴿بِجَانِبِهِۦ﴾: (جنب) أصلانِ مُتَقارِبانِ أحَدُهُما: النّاحيَةُ، ومنهُ: الجنبُ للإنسان وغيره[4]، وأصلُ الجَنْب: الجارحةُ، وجمعه جُنوبٌ، قال تعالى ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ﴾ [التوبة: 35]، وقال: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: 16][5]، وقوله: ﴿أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ معناه: تكبَّر وتباعد[6].

4) ﴿عَرِيضٍ﴾: (عرض) بِناءٌ تَكْثُرُ فُروعُهُ، وهيَ معَ كَثرَتِها تَرجِعُ إلى أصْلٍ واحِدٍ، وهو العَرْضُ الَّذي يُخالِفُ الطّولَ[7]، وإذا استعمل العرض فيما لا يكون عريضًا على الحقيقة؛ فإنَّما يراد به: الكثرة والتَّمام، مثل قوله تعالى: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾، أي: كثير، ولم يقل: طويل؛ لأنَّ العرض أدَلُّ على الطول والتَّمام[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تُبَيِّنُ الآيةُ الكريمةُ أنَّ مِن خصال الإنسان وصفاته أنَّه "إذا أصابَتْهُ السَّرّاءُ؛ طَغا،

(1) الراغب، مفردات القرآن: (عرض).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نأي).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (نأو).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جنب).
(5) الراغب، مفردات القرآن: (جنب).
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (جنب).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرض).
(8) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 354.

إنسانٌ سريعُ الجحودِ عند النَّعماء، سريعُ الجزعِ عند الضَّرّاء

وتَكَبَّرَ، ونَسيَ شُكْرَ رَبِّهِ، نِسْيانًا قَليلًا أو كَثيرًا، وشُغِلَ بِلَذّاتِهِ، وإذا أصابَتْهُ الضَّرّاءُ؛ لَم يَصبِر، وجَزِعَ، ولَجَأ إلى رَبِّهِ يُلِحُّ بِسُؤالِ كَشْفِ الضَّرّاءِ عَنْهُ سَريعًا"[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الوصلِ بالواو:

جاء قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ معطوفًا على ما سبقه بالواو؛ لما بين الجملتَين من تناسُبٍ في كونهما مبيِّنتين تقلُّبَ أحوال الإنسان، وتناقضَ أقوالِهِ وأفعالِهِ، ودالَّتين "على حالِهِ عند مسِّ النِّعمة من جهة يتوقَّعُها، وحاله عند مسِّها بالشَّرِّ بغتة من غير توقُّع؛ تأكيدًا لبيان جهلِهِ"[2]، و"تَعَرُّضًا لِفعْلِ اللّه وتَقْديرِهِ الخَلَّتَيْنِ السَّرّاءِ والضَّرّاءِ، ونقدًا لِسُلوكِهِ في الحالَتَيْنِ وتَعْجيبًا مِنْ شَأْنِهِ"[3]، فيما يُعرف بلاغيًّا بالتَّوسُّط بين الكمالين.

سرُّ إيثار (إذا) الظرفيَّة أداة للشَّرط:

نِعَمُ الله تعالى تَغْلِبُ نِقَمَهُ على الدَّوام

(إذا) في قوله: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا﴾ ظرفٌ لِما يُستقبل مِنَ الزَّمان، تضمَّن معنى الشَّرط، والأصل معه أن يكونَ الشَّرط مقطوعًا بحصولِهِ[4]، ومِن ثَمَّ ففي التَّعبير به "دلالةٌ على غلبةِ نِعَمِ اللّه تعالى في الدُّنيا لنقمِهِ"[5]، ودلالةٌ على تحقُّق غرورِ الإنسان عند الإنعام عليهِ بنِعَمٍ يتوقَّعها، وتحقِّق جزعه وقلَّة صبرِهِ عندما يمسُّه الشَّرُّ مِن جهةٍ لا يتوقَّعُها.

وجهُ التَّعبيرِ بفعل الإنعامِ ماضيًا:

عبَّر النَّظمُ الكريم بفعل الإنعام ماضيًا مسندًا إلى ضمير

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 14.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 221.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 14.
(4) القزويني، الإيضاح: 2/ 117.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 221.

المولى ﷻ بصيغة التَّعظيم في قوله تعالى: ﴿أَنْعَمْنَا﴾؛ لتعظيم الفعل والمفعول، وللدَّلالة على تحقُّق الإنعام والإحسان وحصولِهما على وجه التَّمام والكمال، الَّذي يستدعي شكرَ الله سبحانه، والاعتراف بفضلِه، لا الإعجابَ بالنَّفس والغرورَ بالنِّعمة.

نِعَمُ اللهِ تستدعي شكرَهُ والاعترافَ بفضلِه، لا الإعجابَ بالنَّفس والغرورَ بالنِّعمة

معنى ﴿عَلَى﴾:

﴿عَلَى﴾ حرفُ جرٍّ يفيد الاستعلاءَ، وهو أوَّل معانيه[1]، وفي تعدية فعل الإنعام إلى مفعوله: ﴿ٱلْإِنسَٰنِ﴾ بـ ﴿عَلَى﴾، دلالةٌ على أنَّ نِعَمَ اللهِ تعالى تغمرُ الإنسان غمرًا، وتُغطّيه مِن مفرق رأسِه إلى أخمصِ قدميه.

نِعَمُ اللهِ تعالى تغمرُ الإنسانَ مِن مفرقِ رأسِه إلى أخمصِ قدميه

نوع (أل) في ﴿ٱلْإِنسَٰنِ﴾ ودلالتها:

(أل) في ﴿ٱلْإِنسَٰنِ﴾ يمكن أن تكونَ للعهد، والمرادُ به: ذلك الإنسان الَّذي كان آيسًا قانطًا عند ما مسَّه شيءٌ مِنَ الشَّرِّ، والَّذي سبق حديث السّورة عنه، ويمكن أن تكونَ لتعريف الجنسِ، ويكونَ المرادُ: جنسَ الإنسان، ويدخل فيه المغرورون مِنَ المشركين وغيرهم دخولًا أوَّليًّا برهانيًّا.

سرُّ إظهارِ لفظ: ﴿ٱلْإِنسَٰنِ﴾ دونَ إضمارِه:

كان مِنَ المُمكن أن يأتيَ التَّعبيرُ القرآنيُّ بإضمار الاسم المجرور، فيُقال: (وإذا أنعمنا عليه؛ أعرض ...)، كما سبق إضمارُهُ في قوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا﴾، ولكنَّ النَّظمَ الكريم عدل عن الإضمار إلى التَّعبيرِ بالاسم الظّاهر، فقال: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾؛ لبُعدِ ما بين الضَّمير ومرجعه هنا، وللتَّعجيب مِن شأن ذلك الإنسان المتقلِّب، ونقد سلوكِه في الحالتَين[2]، وللإشارة إلى عدم وجودِ أحدٍ مِن مخلوقات الله يشبهه في سرعة التَّقلُّب وكثرة التَّحوُّل.

التَّعجيبُ مِن شأنِ الإنسان المتقلِّب، ونقد سلوكِهِ في الحالتَين

(1) المرادي، الجنى الداني، ص: 477.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 14.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل الإعراضِ ماضيًا:

الإنسانُ يتعمَّدُ تـرْكَ شكرِ الله تـعـالى عـلى النِّعَم

جيء بجواب الشَّرط: ﴿أَعْرَضَ﴾ الموضوع للانصراف عن الشَّيء ماضيًا؛ للدَّلالة على تعمُّد ذلك الإنسان ترْكَ شكرِ الله تعالى على ما أنعم به عليه[1]، والمعنى: "انحرف عن سواء القصد إلينا عنّا، في جميع مدَّة النِّعمة - بما أفهمه الظَّرفُ - فلم يقيِّد تلك النِّعمة بالشُّكر بعد ما رأى من حلالنا، قاطعًا بأنَّ تلك النِّعمة خيرٌ محضٌ ظاهرًا وباطنًا، فهو يستديمها، وربَّما كانت بلاءً؛ استدراجًا وامتحانًا[2].

بلاغةُ الاستعارة في لفظ الإعراض:

تصويرُ الطَّريقةِ الَّتي يتعامل بها الإنسانُ مع نِعَمِ الله عليه

قولُه: ﴿أَعْرَضَ﴾ معناه: انصرفَ، وهو هنا دالٌّ على الغفلةِ عن شكر المُنعِم، أو تعمُّد ترك شكرِه على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة[3] التي شُبِّه فيها التَّغافلُ عن شكر الله على نعمِهِ بالإعراض والانصراف، ثمَّ حُذِفَ المشبَّه بعد تناسي التَّشبيه، ثم استُعير الإعراض للغفلة، واشتُقَّ منه ﴿أَعْرَضَ﴾ بمعنى: غفل أو تعمَّد، على سبيل الاستعارة التصريحيَّة التَّبعيَّة، الَّتي تُصَوِّر الأسلوبَ الَّذي يتعاملُ به الإنسانُ مع نِعَمِ الله الَّتي يتفضَّل بها عليه، ويختصُّه بها دون غيره من الخلقِ.

دلالةُ حذفِ متعلِّق الإعراضِ:

الإعـــراضُ عـن شكرِ المُنعم هو قـصـدُ المـغـرور وغايته

جاء التَّعبيرُ بفعل الإعراض خاليًا من ذكرِ متعلِّقه؛ إذ المعنى: أعرضَ عن ذكرنا، أو شكرنا، أو دعائنا[4]، وفي حذفهِ دلالةٌ على عموم المعنى وشمولهِ كلَّ ما يُفهمُ منه ردُّ الفضلِ في الإنعام إلى الله تعالى، وأيضًا للدَّلالة على أنَّ الإعراضَ نفسَهُ هو قصدُ الإنسان وغايتُه، وفيه مِنَ الذَّمِّ والتَّعجيب ما لا يخفى[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 14.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 221.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 14.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 15.
(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 410.

توجيهُ العطفِ بالواو:

جاء قولُه: ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ معطوفًا على فعل الإعراضِ بالواو الَّتي تفيد المشاركة؛ للدَّلالة على أنَّ ذلك الإنسان لم يكتفِ بالإعراض، وإنَّما جاء بما هو أقوى منه، وهو النَّأي بالجانب، ويمكن أن يكون الإعراضُ مِن صفة المؤمن، والنَّأي مِن صفة الكافر، أو هو قدر مشتركٌ بين الجميع[1].

لم يكتفِ المغرورُ بالإعراض، وإنَّما جاء بما هو أشدُّ منه

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل النَّأي ماضيًا:

جيءَ بفعل النَّأي ماضيًا في قوله: ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾؛ للدَّلالة على تَعَمُّد ذلك المغرور النَّأي، كما تعمَّدَ الإعراض، وللإشارة إلى أنَّه ذهب فيه مذهبًا بعيدًا، والمعنى: "أبعد إبعادًا شديدًا، بحيث جعل بيننا وبينه حجابًا عظيمًا حال كونه مال"[2].

المغرورُ بالنِّعَمِ يتعمَّد النَّأي كما تعمَّد الإعراض، ويذهب فيه مذهبًا بعيدًا

بلاغةُ الاستعارةِ في التَّعبير بفعل (النأي):

النَّأْيُ معناه: البُعْدُ، وهو هُنا مُسْتَعارٌ لِعَدَمِ التَّفَكُّرِ في شُكْرِ المُنْعِم، ما يعني: أنَّه شُبِّه عدم التَّفكير في شكر الله بالبُعد، ثمَّ حُذف المشبَّه بعد تناسي التَّشبيه، ثمَّ استُعير النَّأي لعدم الشُّكر، واشتُقَّ منه (نَأى) بمعنى: لم يشكر على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، الَّتي تصوِّر حالةَ جحودِ الإنسان وتَنَكُّرِهِ للمُنْعِم ﷻ.

تصويرُ حالةِ جحود الإنسان وتَنَكُّرِه للمُنْعِم سبحانه

معنى الباء في ﴿بِجَانِبِهِۦ﴾:

الباء في قوله: ﴿بِجَانِبِهِۦ﴾ للتَّعْدِيَة، والمَعنَى: أبعَدَ جانِبَهُ، أي: ولَّى مُعْرِضًا غَيْرَ مُلْتَفِتٍ بِوجْهِهِ إلى الشَّيءِ الَّذي ابتَعَدَ هو عَنْهُ[3].

دلالةُ التَّعبير بلفظ الجانب:

التَّعبيرُ بلفظ الجانب فيه وجهان: أحدهما: أن يوضعَ جانبُهُ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 410.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 221.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 15.

موضعَ نفسِهِ، أي: يُنَزَّلُ مكانُ الشَّيء وجِهتُه منزلةَ الشَّيء نفسِهِ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: 46]، ومنه قول الكُتّاب: حضرةُ فلانٍ ومجلسه، وكُتِبَت إلى جهته وإلى جانبه العزيز، يريدون نفسه وذاته، فكأنَّه قال: ونأى بنفسه، كقولهم في المتكبِّر: ذهب بنفسِهِ، وذهبت به الخيلاءُ كلَّ مذهبٍ، وعصفت به الخيلاءُ، والثّاني: أن يرادَ بجانبِهِ: عِطفَهُ، ويكون عبارة عن الانحرافِ والازورارِ، كما قالوا: ثنى عِطْفَه، وتولّى بركنه[1].

المغرورُ ينأى بنفسِهِ عن شكر المُنعم، أو يعطي النِّعمَ جانبَه وينصرف عنها

بلاغةُ المجاز في لفظ الجانب:

إذا كان المرادُ بالجانبِ: نفسَ الإنسان وذاتَهُ، كما سبق بيانُهُ، ففي التَّعبيرِ مجازٌ مرسلٌ علاقتُهُ الجزئيَّة؛ إذ عبَّر بالجزءِ، وهو الجانب، وأراد الكلَّ، وهو النَّفس أو الذات، وخُصَّ الجانبُ بالذِّكر دون بقيَّة الأعضاء؛ لما له مِن أهميَّة في هذا الأمر؛ جريًا على عادةِ النّاس وأعرافهم في التَّعامل فيما بينهم، فمِن الرّاسخ الثّابت أنَّ تلقّي المخاطَبِ بالوجه فيه دلالةٌ على الإقبال عليه والاهتمام بشأنِهِ، والإشاحة بالوجه عنه وتلقّيه بالجانب؛ فيه برهانٌ على عدم الاكتراثِ به، وشدَّة الإهمالِ له، ما يدلُّ على إهمالِ ذلك الإنسان نعمةَ اللّهِ وتكبُّره عن شكرِ اللّه الَّذي تفضَّل عليه بها.

قد يُعبَّر بالجانب ويرادُ به النَّفسُ أو الذّاتُ

بلاغةُ الكنايةِ في: ﴿بِجَانِبِهِۦ﴾:

يمكنُ أن يكونَ قولُهُ: ﴿بِجَانِبِهِۦ﴾ كنايةً عن عدم اهتمام ذلك المغرور بما أنعمَ اللّهُ به عليه، وعدم الفرح أو السُّرور بتلك النِّعم، وعدِّها شيئًا سهلًا بسيطًا لا يحتاج إلى ابتهاجٍ أو فرح، وهذا المعنى لا يمنع أنَّه يُعطيها جانبَهُ في الحقيقةِ[2] والواقع؛ كبرًا منه وغرورًا؛ لِما هو معروف مِن أنَّ الكنايةَ لا تمنع مِن إرادة المعنى الحقيقيِّ، والمرادُ:

التَّلقّي بالجانب فيه كنايةٌ عن التَّكبُّرِ والإعجابِ بالنَّفس

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 206.

(2) الشهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 404.

"مال بشقِّه؛ كنايةً عن تكبُّره وإعجابه بنفسه وزهوه، وتصويرًا له بمَن كلَّمتَهُ، فازورَّ عنك، والتوى، وأبعدَ في ضلالِه، وغوى"[1].

توجيهُ العطفِ بالواو:

جاء قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو﴾ معطوفًا على ما قبلَهُ بالواو؛ للتَّوسُّط بين الكمالين؛ إذ تتطابق الجملتان في كونِهما خبريَّتين توضِّحان حالتين متضادَّتين من حالات الإنسان؛ تعجيبًا مِن شأنه، وتحذيرًا من السَّير على منهجِه؛ إذ توضِّح الجملةُ الأولى حالَ الإنسانِ عند الإنعام عليهِ بالخير، وتوضِّح الثانية حاله عند مسِّه بالشَّرِّ، أو "توضِّح الجملة الأولى حالَهُ عندما يمسُّه شيءٌ بغتةً، وتوضِّح الثانية حاله عندما يَمَسُّه شرٌّ يتوقَّعُه"[2].

سرُّ إيثار الظَّرف (إذا) على (إنْ):

ابتلاءُ الإنسان بالشَّرِّ أمرٌ مقطوعٌ بحصولِهِ

عبَّر النَّظمُ بـ (إذا) أداةً للشَّرط؛ "للتَّنبيه على أنَّ مثلَهُ يحقُّ أن يكون ابتلاؤه بالشَّرِّ مقطوعًا به"[3]، و"ليدلَّ على أنَّه لزيادة جهلِه على الحدِّ؛ يلزم الكِبرَ، وإن كان يتوقَّع الشَّرَّ، ولا يزال حالُهُ حالَ الآمن إلى أن يخالطَهُ، وحينئذٍ تنحلُّ عراه، وتضمحلُّ"[4].

دلالةُ التَّعبير بفعل المسِّ مادَّة وصيغة:

الشَّرُّ الَّذي يمسُّ الإنسانَ ممَّا يحدث عادةً، ويتقلَّب فيه النَّاسُ بين عشيَّةٍ وضحاها

قولُه: ﴿مَسَّهُ﴾ فعلٌ ماضٍ، وفاعلُهُ: ﴿ٱلشَّرُّ﴾، وضميرُهُ المنصوب يعود إلى: ﴿ٱلْإِنسَٰنِ﴾، وعبَّر به النَّظمُ بدلًا من الفعل: أصاب؛ للدَّلالة على قِصَرِ مُدَّة ما يصيب الإنسانَ مِنَ الشَّرِّ، وأنَّ أيامَ عافيتِهِ أكثرُ وأطولُ من أيّام بلائِهِ وشدَّتِه، وفي التَّعبير به ماضيًا دلالةٌ على أنَّ ما ينزل به من بؤسٍ أو حزنٍ على الرَّغم من تحقُّق وقوعه، فإنَّه لا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 221.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 221، 222.
(3) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 242.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 222.

يدوم طويلًا، وينقضي سريعًا؛ لأنَّه ممّا يحدث عادة[1]، ويتقلَّبُ فيه النّاسُ بين عشيَّةٍ وضحاها.

نوع (أل) في ﴿ٱلشَّرُّ﴾ ودلالته:

الشَّرُّ قد يكون متوقَّعًا وقد يكون غيرَ متوقَّع

(أل) في قوله: ﴿ٱلشَّرُّ﴾ يجوز أن تكون لتعريف الجنس، والمعنى: إذا أصابه أيُّ قَدْرٍ من الشَّرِّ، قليلًا كان أو كثيرًا، صغيرًا كان أو كبيرًا، مرضًا كان أو فقرًا إلى آخرِهِ، ويمكن أن تكونَ لتعريف العهد، والمعنى: إذا أصابَهُ شرٌّ مُتَوقَّعٌ معروفٌ، يَظُنُّ أنَّه لا بدَّ أن يصيبَهُ لسببٍ مِنَ الأسباب.

وجهُ عدمِ إسناد مسِّ الشَّرِّ إلى الله تعالى:

الشُّرور والأضرار تُسند للإنسان بسوء تصرُّفه، ولأنَّه يقع فيها بجرأته

عَدَلَ النَّظمُ الكريمُ عَن إسنادِ إصابَةِ الشَّرِّ إلى اللّه؛ تَعْليمًا للأدَبِ مَعَ اللّه، كَما قالَ خليلُ الرَّحمن إبراهيمُ ﷺ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ [الشُّعَراء: 78]، ثُمَّ قالَ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشُّعَراء: 80]، فلَم يقل: وإذا أمرَضَني، وفي ذَلِكَ سِرٌّ، وهو أنَّ النِّعَمَ والخَيرَ مُسَخَّران لِلإنسانِ في أصلِ وضعِ خِلقَتِه، فهُما الغالِبانِ عَلَيه؛ لِأنَّهُما مِن مَظاهِرِ ناموسِ بَقاءِ النَّوعِ، وأمّا الشُّرورُ والأضْرارُ؛ فإنَّ مُعظمَهما يَنْجَرُّ إلى الإنْسانِ بِسوءِ تَصَرُّفِهِ وبِتَعَرُّضِهِ إلى ما حَذَّرَتْهُ مِنهُ الشَّرائِعُ والحُكَماءُ المُلهَمونَ، فقَلَّما يَقَعُ فيهِما الإنسانُ إلّا بِعِلمِهِ وجُرأتِهِ[2].

معنى الفاء:

الفاءُ في قولِهِ: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ هي الدّاخلة على جواب الشَّرط، والَّتي تربطُ بين جملتَيهِ برباط السَّببيَّة، وهي - مع ذلك - تُفيد معنى التَّعقيب والإسراع، أي: إنَّ الإنسانَ عندما يمسُّه شيءٌ خفيفٌ من الشَّرِّ يجزع، فلا يصبر، ولا يتحمَّل، ويهرع إلى الدُّعاء والإلحاح على اللّه؛ راجيًا أن يرفعَ ما مسَّه من الشَّرِّ على وجه السُّرعة.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 15.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 15.

وجهُ التَّعبير بلفظ (ذو):

على الإنسانِ ألّا يترك الدُّعاء في جميع الأوقات، لا أن يتذكَّره عند الشَّدائد فقط

عبَّر النَّظمُ القرآنيُّ بلفظ (ذو) في قوله: ﴿فَذُو دُعَآءٍ﴾، ولم يقل: فداعٍ؛ "لِما تُشْعِرُ بِهِ كَلِمَةُ (ذو) مِن مُلازَمَةِ الدُّعاءِ لَهُ وتَمَلُّكِهِ مِنهُ"[1]، بجانب "المبالغة في ذمِّه بكثرة الإلحاح، وملازمته له عند نزول الشَّدائد به فقط"[2]، "فقد كان ينبغي له أن يشرعَ في الدُّعاء عند التَّوقُّع بل قبله؛ تعرُّفًا إلى اللّه تعالى في الرَّخاء ليعرفه في الشِّدَّة، وهو خُلُقٌ شريفٌ، لا يعرفه إلّا أفراد خصَّهم اللّهُ بلطفِه، فدلَّ تركُهُ على عدمِ شكرِهِ؛ لما مضى، وخفَّة عقله لما يأتي، ومفاجأته للزوم الدُّعاء عند المسِّ على عدم صبرِهِ، وتلاشي جلدِهِ، وقلَّةِ حيائِهِ"[3].

وجهُ تنكيرِ لفظ ﴿دُعَآءٍ﴾:

الإكثارُ مِنَ الدُّعاء واستعجال الإجابة يدلُّ على جزع الإنسان وقلَّة صبره

كلمةُ ﴿دُعَآءٍ﴾ تدلُّ بمعناها ومبناها المشتمل على ألف المدِّ في وسطها على مبالغة الإنسان في التَّضرُّع إلى اللّه، وإكثارِه من استعجال الإجابة عندما يمسُّه شيءٌ من الشَّرِّ، كثرةً لا حدودَ لها، وأوثرَ التَّعبيرُ به نكرةً مُنوَّنةً لما يفيده التَّنكيرُ والتَّنوينُ من التَّعظيم والتَّفخيم، المؤكِّدِ شدَّةَ جزعِهِ وقلَّةَ صبرِه.

سرُّ الوصفِ بلفظ ﴿عَرِيضٍ﴾ دلالة وصيغة:

التَّعبيرُ بالعرضِ دون الطّول يدلُّ على كثرة الدُّعاء وتكراره بلا حدود

وصف النَّظمُ دعاءَ الإنسان عندما يمسُّه الشَّرُّ بقوله: ﴿عَرِيضٍ﴾؛ للدَّلالة على كثرة الدُّعاء وتكرارِه بلا حدودٍ؛ لأنَّ معناه: "طويل أيضًا، فاستغنى بالصِّفة الواحدة عن لزيمتها؛ إذ العرضُ يقتضي الطّول ويتضمَّنه، ولم يقل: (طويل)؛ لأنَّ الطَّويل قد لا يكون عريضًا، فـ ﴿عَرِيضٍ﴾ أدلُّ على الكثرة[4]، يقوّي ذلك المعنى مجيءُ الصِّفة بزنةِ (فعيل) الَّتي هي إحدى صيغ المبالغة، مع التَّنكير والتَّنوين[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 15.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 410.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 222.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 23.
(5) الشهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 405.

بلاغةُ الاستعارة في قوله: ﴿عَرِيضٍ﴾:

إبـرازُ الـدُّعـاء في صـورة الـشَّيء المحسوس الَّذي له عرضٌ وطولٌ

في وصف الدُّعاء بكونهِ عريضًا استعارةٌ مكنيَّةٌ، شُبِّه فيها الدُّعاءُ المُتَكَرِّرُ المُلِحُّ فيهِ بِالثَّوْبِ أوِ المَكانِ العَريضِ[1]، ثم حُذِفَ المشبَّه به، ورُمز إليه بشيء مِن لوازمِهِ، وهو العَرض على سبيل الاستعارة المكنيَّة التي تبرز كثرةَ الدُّعاء وديمومتَهُ، وتحيل الدُّعاء من أمر معنويٍّ إلى أمرٍ حسّيٍّ له عرضٌ وطولٌ، وكان مِن الممكن أن يُستَعار له الطّول، لكنَّ استعارةَ العرض أبلغُ؛ لأنَّه إذا كان عرضُه كذلك؛ فما ظنُّك بطولهِ؟ والطّول أطولُ الامتدادين، فإذا كان عرضه بهذه المثابة؛ فناهيك بطوله[2].

بلاغةُ الاحتباك في الآية:

على الإنسانِ أن يتـأدَّب مع الله وألّا ينسبَ الشَّرَّ إليه

في الآية الكريمةِ لونٌ مِن ألوانِ البديع هو: الاحتباكُ؛ إذ اجتَمَعَ في الكَلامِ مُتَقابِلانِ، فحُذِفَ مِن كُلٍّ مِنهُما مُقابِلُهُ؛ لِدَلالَةِ الآخَرِ عَلَيهِ[3]، فقد ذكرَ الإنعام أوَّلًا دليلًا على الانتقام ثانيًا، وذَكر الشَّرَّ ثانيًا دليلًا على الخير أوَّلًا، والتَّقدير: وإذا أنعَمْنا على الإنسان بالخير؛ أعرض، ونأى بجانبه، وإذا مسَّه الشَّرُّ انتقامًا؛ فذو دعاءٍ عريضٍ، وسرُّه: تعليمُ الأدب بنسبة الإنعام دون الشَّرِّ إليه سبحانه، وإن كان الكلُّ منه[4].

توجيهُ متشابهِ النَّظم:

القنوطُ واليأسُ عند مسِّ الشَّرِّ شأنُ الكافرين، والـدُّعـاءُ شـأنُ المسلمين

تحدَّثت السّورةُ عن حال الإنسانِ إذا مسَّه الشَّرُّ في موضعين: **أوَّلهما**: قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾، **والآخر**: قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾، وممّا يُلحَظ عدمُ ذِكر لجوء الإنسان إلى الدُّعاء في الموضع الأول،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 15.
(2) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 9.
(3) الزركشي، البرهان: 3/ 129، بتصرف.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 222.

وذِكر لجوئِهِ إليه في الموضع الثاني، والسِّرُّ في ذلك - والله أعلم - أنَّ الآية الأولى تتحدَّث عن حال المشركين عندما يمسُّهم الشَّرُّ؛ إذ ينصرف هؤلاء إلى أصنامِهم[1]، بينما الآيةُ الثّانيةُ تتحدَّث عن حال المسلم عندما يبتليه اللّهُ بشيءٍ مِن الشَّرِّ، بقصد اختباره، أوتنبيهه من غفلته، أو إفاقته من الانشغال بالنِّعمة عن المنعم، "فلعلَّ هذا شأنُ بعضٍ غيرِ البعضِ الّذي حُكيَ عنه اليأسُ والقُنوطُ، أو شأنُ الكلِّ في بعضِ الأوقاتِ"[2].

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الإعراض والإحجام والإدبار:

الإعراضُ: التَّولّي وإبداء العَرْضِ استغناءً[3]، والإحجامُ: ضَرْبٌ مِنَ المَنعِ والصَّدِّفِ، يُقالُ: أحجَمتُ عَنِ الشَّيءِ؛ إذا نَكَصْت عَنهُ[4]، والإدبار هو: التَّولّي والذَّهاب[5]، ولمّا كانت الآية تتحدَّث عن حال الإنسان عندما تمسُّه نعمةٌ يتوقَّعها؛ ناسب البيان بفعل (الإعراض)، الدّالِّ على الكِبر والغرور والتَّعالي على شكرِ الله؛ لأنَّه يرى نفسه مستحقًّا لها، أو مستغنيًا عنها، بخلاف الإحجام والإدبار اللَّذَيْنِ قد لا يتحقَّق فيهما ذلك، أي: إنَّهما قد يحصلان لأسباب منطقيَّة.

الإعـراضُ دالٌّ عـلى الـكِـبر والـغـرور، أمّـا الإحـجـامُ والإدبـارُ؛ فقد يخلوان مِن ذلك

النَّأي والبُعد:

النَّأْيُ: يكون لما ذهب عنك إلى حيثُ بلغ، وأدنى ذلك يقال له: ناء، والبُعد: تحقيقُ الخروج والذَّهاب إلى الموضع السَّحيق، فالنَّأيُ هو: أوَّلُ البُعد، والبُعدُ هو: الَّذي يكاد يبلغ الغايَة[6]، ولأنَّ المُعرِضَ عن شكر النِّعمة لا يبتعد عنها؛ لأنَّ ابتعاده يُنقصُ من كِبره، ويقلِّل

النَّـأْي أدلُّ على تـكـبُّر الإنـسـان وكمال اغتراره، بـخـلاف البُـعـد الَّـذي قـد يخلو منهما

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 10.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 19.
(3) الراغب، مفردات القرآن: (عرض).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حجم).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (دبر).
(6) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 23، والعسكري، الوجوه والنظائر، ص: 351.

من غروره، وكان التَّعبيرُ بفعل (النأي) الدالِّ على أوَّل البُعد هو الأنسبُ لحاله، وأدلُّ على كمال اغتراره وسوء طويَّته؛ لأنَّ الإعراضَ عن الشَّيء القريب، يعني التَّرفُّع عنه وعدم الحاجة إليه حقيقة أو تظاهرًا، بخلاف البُعد أو الابتعاد الَّذي قد لا يوحي بذلك.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والخمسون،
سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والخمسون، سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 52 ، 818 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-641-48-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 52 : المجلد الثاني والخمسون، سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-641-48-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0346315 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"